المديح في شعر علي بن المقرب العيوني

عدنان عمران شكر

adnan.omran1203a@ircoedu.uobaghdad.edu.iq

أ.د. زهرة خضير عباس

جامعة بغداد / كلية التربية ابن رشد للعلوم الانسانية/ قسم اللغة العربية

الملخص:

يدرس هذا البحث المديح في شعر علي بن المقرب العيوني الذي تصدر قصائده الشعرية ، وان النسبة الغالبة من هذه المدائح توجه به الشاعر الى حكام البحرين لتحقيق اهداف سياسية من جانب، أو لحماية نفسه ومصالحه الخاصة من جانب اخر أثناء تنقلاته بين البلدان التي انتقل بها في غربته دون اي وسيلة منه للتكسب او الشهرة، وكانت مدائح في غير قرابته متكررة لمتعددين، وتعد من المدائح الطوال التي يتفاخر بمقدرته الادائية على قولها، وهذا ما جعلها ضمن المديح الاجتماعي، التي افرزتها العلاقات الاجتماعية المتبادلة في ظل نظام طبقي عشائري يقوم على تبادل المنفعة .

اما مديحه الديني جاء في المرتبة الثانية في نسبة الابيات التي جاءت متفرقة وموزعة بين ابيات القصائد، فقد خرجت هذه الابيات الدينية للتوجيه والارشاد والدعوة للرجوع الى (كتاب الله)، والتمسك بالرسول وعترته الاطهار (عليهم السلام)

الكلمات المفتاحية: المقرب العيوني، المديح الاجتماعي ، المديح الديني، التمسك بالرسول وعترته.

مدح الآخر:

يعد المدح قديم النشأة، وهو فن عريق من أبرز الفنون الشعرية منذ عصر ما قبل الإسلام، ((وهو تعداد لجميل المزايا ووصف الشمائل الكريمة، وإظهار التقدير العظيم الذي يكنه الشاعر لمن توافرت فيهم هذه المزايا))[١]، وقد شكل جانباً كبيراً في نتاج الشعراء منذ القدم، وقد نشأ في بادئ الأمر في وصف الفضائل العربية، (كالسماحة، والكرم، والحلم والشجاعة، ...الخ)، واستمرت هذه الفضائل ترد في شعر المديح في العصور المختلفة، لأغراض خاصة، من خلال اتخاذها صناعة يبيعها بعض الشعراء في أعتاب الملوك والزعماء لتحقيق أهدافهم للتكسب المادي والمعنوي، وأُخرى لخدمة أغراضهم السياسية، ترويجاً لأفكارهم ومبادئهم[٢].

وإنَّ الحديث طويل في هذا المضمار، فلا يكاد يوجد شاعر لم ينظمْ في هذا الغرض، وحتى ابن المقرّب من الشعراء الذين نظموا في المديح بشكلٍ واسع، فقد بلغ قصائد المديح في ديوانه (٦٧) قصيدة، أي بنسبة (٦٠%) من مجموع قصائد الديوان، وهي نسبة كبيرة قياساً بأغراضه الشعرية الأُخرى، وقد أصفى مديحه من لا يستوجب المدح، ويعد مديحه إطراءً في معظمه وقفاً على أبناء عمومته، وكان هذا المديح منصبّاً على غرضٍ نبيل يتلّخص في المطالبة بحقوقه المشروعة التي أُغتصبت منه تعسفاً وعدواناً، فمدحه لهم إنما هو من قبيل الإستعطاف والملاينة، فهو لم يرم به إلى التكسب أو النوال شأنه شأن الكثير من شعراء عصره، واما مديحه للولاة والأمراء والخلفاء من غير أسرته فهو قليل[٣]، ولذلك فإن مديحه ينقسم على قسمين:

١ – المديح الديني :

هو فن أدبي ظهر بظهور الإسلام، ويعد من فنون الشعر التي أذاعها التصوف، فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية، وباب من الأدب الرفيع؛ لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص للرسول

(صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته الطيبين الأطهار, وأكثر المدائح النبوية قيل بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، ويراد بها التقرّب إلى (الله تعالى بنشر محاسن الدين، والثناء على شمائل الرسول وسلالته الإطهار (عليهم السلام)) [٤].

وقد وظّف هذا النوع من الشعر في الدفاع عن الدعوة الإسلامية، والإسلام والمسلمين، ونصرة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وكان من الطبيعي أن يتضمن الشاعر المناصرة للإسلام مديحاً لرسول الله وأهل بيته، وأول ما عرف من مديح نبوي، قيل في رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : وهو الشعر المنسوب إلى أبي طالب الذي قال فيه[٥]:

وأبـــيضَ يَسْتَسْـــقِي الغَمـــامَ بوجهـــه ثمـــال اليتـــامى عصـــمة للأرامـــل

وكذلك قول جده عبد المطلب، إبان ولادة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)[٦]:

وأنـــتَ لمـــا ولـــدتَ أشـــرقَتْ الأرضُ وضـــاءتْ بنـــورِكَ الأفـــقُ
فـــنحنُ فـــي الضـــياءِ، وفـــي النـــورِ وســـبلِ الرشـــادِ تختـــرقُ

وأصبح المديح النبوي في نهاية العصر العباسي، ((غرضاً مستقلاً، يحتل مساحة واسعة من الأدب العربي، وتوجهت اليه قرائح الشعر طلباً للشفاعة والخلاص من الواقع المؤلم الذي وصل اليه المسلمون .. من خلال الميل بالسنة النبوية، وصعوبة الظروف التي أحاطت بالأمة الإسلامية، وأنحلال سلطة الخلافة، وقسوة الحياة على الناس حيث جعلت أنظار الناس تتوجه إلى الرسول طلباً للعون والشفاعة، والتصوف الإسلامي)) [٧] حباً في (الله تعالى) وأنبيائه وأوليائه الصالحين.

وأما المديح الديني عند المقرّب، فلم تكن قصائداً مستقلة في ديوانه، وإنما كانت عبارة عن أبيات متفرقة موزعة بين أبيات القصائد؛ لإنَّ ((براعة ابن المقرب حقاً تظهر في حسن تخلصه وانتقاله من غرض إلى آخر بطريقة يبقى الكلام على سلاسته وانسيابه، فلا يحسن القارئ بأي انقطاع أو طفرة قد تغير من مجرى الكلام أو تحول أثره في النفس)) [٨]، وقد يتراود إلى ذهن القارئ، لماذا كانت أبياته في المديح الديني مبثوثة بين أبيات قصائد المدح للخلفاء والأمراء والولاة بشكل خاص؟ من وجهة نظر الباحث كانت مدائحه الدينية للتوجيه والإرشاد، والدعوة للرجوع إلى كتاب (الله تعالى)، والتمسك بالرسول وعترته الأطهار (عليهم السلام). ومن مدائحه الدينية التي مدح فيها الرسول وأهل بيته (عليهم السلام) قوله[٩]: (الطويل)

فَفِـــي شـــاطِئِ الـــزَّوْراءِ مِـــنْ آلِ هَاشِـــمٍ إمَـــامُ هُـــدىً يُـــؤْوى إلَيْـــهِ فَيَعْصِـــمُ
تطُـــوفُ المُلُـــوكَ الصِّـــيْدُ حَـــوْلَ قِبَابِـــهِ كَمَـــا طَـــافَ بـــالرُّكْنِ اليَمَـــانِيِّ مُحْـــرِمُ
تُرَجِّـــي بِـــهِ دُنْيـــا ودينـــاً لأنَّـــهُ إلـــى الله فـــي الـــدُّنْيَا وفـــي الـــدِّيْنِ سُـــلَّمُ
وهـــل مِثْلُـــهُ يَـــوْمَ المَعَـــادِ وَسِـــيْلَةٌ إلـــى الله إلاَّ رَهْطُـــهُ المُتَقَـــدِّمُ
أُبُوَّتُـــهُ إمَّـــا نَبِـــيٌّ مُعَظَّـــمٌ إلـــى الله يَـــدْعُو أَوْ إمَـــامٌ مُكـــرَّمُ
هُـــمُ القَـــوْمُ إنْ مَـــالُوا أَمَـــالُوا وإنْ دُعُـــوا أَنَـــالُوا وإنْ خَفَّـــتْ بَنُـــو الحَـــرْبِ أَقْـــدَمُوا
وإنْ وعَـــدُوا أَوْفُـــوا وإنْ أوعَـــدُوا عَفَـــوْا وإنْ سُـــئِلُوا النَّعمـــاءَ جَـــادُوا وأَنْعَمُـــوا
وإنْ عاهَـــدُوا عَهْـــداً أصـــرُّوا وحَـــافَظُوا وإنْ عقـــدوا عَقْـــداً أَمـــرُّوا وأَحْكَمُـــوا
وإنْ حـــارَبُوا قَوْمـــاً أقـــامُوا وأَقْعَـــدُوا وإنْ خُوْطِبُـــوا يَوْمـــاً أَجَـــرُّوا وأَفْحَمُـــوا
هُـــمُ نَزَلُـــوا أَجْيَـــادَ مَكَّـــةَ فـــابتَنَوا بِبِطْحَائِهَـــا فـــي حَيْـــثُ شـــاؤُوا وخَيَّمُـــوا
وأَضْـــحَوْا وَبَيْـــتُ الله فِـــيْهِمْ وسَـــلَّمَتْ خُزَاعَـــةُ كُـــلَّ الأَمْـــرِ فِـــيهِمْ وجُـــرْهُمُ

لقد كتب الشاعر هذه الأبيات المدحية أثناء نزوحه إلى الزوراء (بغداد)، وكان قاصداً مرقد أحد الهاشميين (عليهم

السلام)، وهو لم يفصح علناً عن أسمه، ولكنه ذكر سلالته الشريفة أنه من أحفاد المصطفى ومن أولاد المرتضى (عليهما أفضل الصلاة وأزكى السلام)، ذاكراً الرجاء والمنزلة والقرب عندهم طلباً للدنيا والآخرة، ثم ينتقل الشاعر إلى وصف الصفات الخلقية لهم من (الكرم، والشجاعة، والبطولة، والوفاء، والسخاء، والجود، والفصاحة، والعلم..) إلى آخر الصفات الحميدة لهذه السلالة المباركة، وتعد بحق هذه الأبيات لوحة كاملة وأبياتها تتسم بحركة مستمرة ترافقها موسيقى شجية(١٠).

ونلحظ توظيف الشاعر للأداة (إنْ) الشرطية الجازمة، والتي يجزم بها الشاعر هذه الصفات في الممدوحين من السلالة الجليلة النسب (عليهم السلام)، في أكثر من موضع تأكيداً منه وإقراراً لهم بالمنزلة الرفيعة والمكانة المشهودة عند (الله تعالى) بجوار بيته بمكة وتشرف قريش والعرب بهم أجمع.

إنَّ ذكر الشاعر لنسب النبي وآله الأطهار (عليهم السلام)، ورد بشكلٍ ملفت للنظر عفوي رائع. من خلال إشارته لعظمة الممدوح وجلاله، فهو يجسد بطريقة أو بأُخرى عاطفته الجياشة المستمدة من حبه لآل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، في أبياتٍ متماسكة، وجماليةً في التعبير، وعاطفة متفردة تبين قدرة الممدوح وعلو مكانته(١١)، وإنَّ المديح النبوي تسابق إليه الشعراء العباسيون في عصره، وكان ابن المقرب من الشعراء السباقين إلى ذكر مناقب آل البيت الأطهار، فقد قال فيهم (عليهم السلام) (١٢): (الطويل)

بِكُمْ يُؤْمِنُ الله البِلَادَ وَيُصْلِحُ الْـ ... عِبادَ وَيَعْفُو عَنْ ثِقَالِ الجَرَائِمِ
وَأَنْتُمْ مَصَابِيحُ الظلامِ وَقَادَةُ الْـ ... أَنَامِ وَرَبٌّ للثَّنَا المُتَفَاقِمِ
وَفِيكُمْ أَقَامَ الله أَعْلامَ دِينِه ... وَلَوْلاكُمُ كُنَّا مَعاً كالبَهَائِمِ
تَخَيَّرَكُمْ رَبُّ العُلا واصْطَفَاكُمُ ... وَطَهَّرَكُمْ مِن كُلِّ ذَمٍّ وَذائِمِ(١٣)
وآتاكُمُ فَصْلَ الخِطابِ ومُحْكَمَ الْـ ... كِتَابِ ومُلْكاً زاهِياً غَيْرَ زائِمِ(١٤)
فأَوْضَحْتُمُ سُبْلَ الهُدَى وكَشَفْتُمُ ... عَنِ الحَقِّ أَغْشَاءَ العَمَى المُتَرَاكِمِ
وقَوَّمْتُمُ بالسَّيْفِ مَنْ مالَ خَدُّهُ اصْـ ... ـعِرَاراً وَلَمْ يَسْمَحْ بأَنْفٍ لِخَاطِمِ
فَكَمْ هامَةٍ للْكُفْرِ راحَتْ وَهَامُها ... نِعَالاً لأَيْدِي خَيْلِكُمْ في الملاحِمِ
فَقُلْ لِرُعَاةِ الشَّرْقِ والغَرْبِ أقصِرُوا ... وَكُفُّوا وإلاَّ تَقْرَعُوا سِنَّ نادِمِ
فَمَا الحَقُّ إلاّ دعْوَةٌ ناصِرِيَّةٌ ... هِيَ الحَقُّ لا دَعْوَى غَوِيٍّ وآثِمِ
بِهَا اصْبَحَ الإسْلامُ في كُلِّ مَوْطِنٍ ... يَنُوءُ بِرُكْنٍ مِنْهُ عَقْدُ الدَّعائِمِ

يتوجه الشاعر في هذه الأبيات الشعرية إلى ذكر مناقب ومنزلة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عند (الله تعالى) ومناقب أهل بيته الأطهار (عليهم السلام)، ودورهم الرشيد في إصلاح البشرية وتوجيههم نحو الحق، والإسلام، وكتاب (الله عز وجل) وسنة نبيه (عليه الصلاة والسلام)، ودليل حبه لآل البيت (عليهم السلام)، حديثه بصيغة الجمع (بكم، وأنتم، وفيكم، وتخيركم، وآتاكم، وقومتم)، كلها صيغ جمع يقصد بها العترة الطاهرة الزكية المطهرّة من الشرك والآثام، وبهم أصلح الله تعالى الأمم، وبسيوفهم وتضحياتهم أخرجوهم من غمام الشرك والعبودية، وبهم نشر الإسلام في الشرق والغرب، وتعالت الأصوات للواحد القهار، بدعوةٍ هاشميةٍ فاطميةٍ تعالت على أصوات الكفر والضلالة.

ففي هذا النص اقتصر الشاعر أمام الآخر في هذا المديح الديني أمرين هما:

١- حبه وولاءه لآل رسول الله (عليهم الصلاة والسلام)، ومدائحه خير دليل.

٢- ذكر منزلة الرسول وآله الأطهار عند الله (عز وجل)، فيهم أكرم الإسلام والمسلمين، وانقذهم من جهة الشرك

وعبادة الأصنام، والغوص في الملذات.

ومن قصائد المديح الديني، قصيدة قالها في حضرة أحد العلويين ببغداد، وهو تاج الدين إسماعيل بن النقيب ... بن زيد العلوي الحسني، وكان تربطه به صداقة ومودّة كتب في مدحه قصيدتان يظهر فيهما حبه وقربه وراحته بالقرب منه، حيث قال في أبياتٍ منه[١٥]: (البسيط)

قَـــوْمٌ لَهُـــمْ ذِرَوةُ العَلْيَـــاءِ تَعْرِفُـــهُ	وانِـــي مَعَـــدٍّ إِذَا عُـــدَّتْ وَقَاصِـــيهَا
عـــافُوا الظَّـــواهِرَ مِـــنْ أُمِّ القُـــرَى وَبَنَـــوْا	أبيـــاتُهُمْ عِـــزَّةً فـــي سِـــرِّ واديهَـــا
وأصْـــبَحَتْ كَعْبَـــةُ اللهِ الحَـــرَامُ وَقَـــدْ	أضْـــحَتْ ومِـــنْهُمْ بِـــرَغْمِ الخَصْـــمِ واليهـــا
سَـــادُوا قُرَيْشـــاً عُـــلاً فـــي جاهِلِيَّتِهَـــا	وَمَـــنْ يُسَـــامِي قُرَيْشـــاً أو يُبَارِيهـــا
وكُـــلُّ عَلْيـــاءَ فـــي الإســـلامِ فَهْـــيَ بَهِـــمْ	تُبْنَـــى وقُطْـــبُ الرَّحَـــى مِـــنْهُمْ وهادِيهـــا
يـــامَنْ يُسَـــامِي إلـــى مَجْـــدٍ بَنِـــي حَسَـــنٍ	عَـــدِمْتَ رُشْـــدَكَ هَـــلْ خَلْـــقٌ يُسَـــامِيهَا
قَبِيلـــةٌ مِـــنْ رَسُـــولِ اللهِ عُنْصُـــرُها	وَمِـــنْ عَلِـــيٍّ فَتَـــى الـــدُّنيا ومُفْتِيهَـــا

إنَّ هذه الأبيات تعد انعكاساً لدواخل الشاعر المكنونة في حب العترة الطاهرة (عليهم السلام)، والنور المتدفق في إحساساته، معبراً بصدق عن إيمانه القوي وحبه الشديد للإسلام ولرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، الذين علو قريشاً في جاهليتها، وعلو اسم الإسلام والمسلمين، في كل زمانٍ ومكان، فلهم الفضل والفخر على البشرية جمعاء، رغم عداء قريش لهم مدة الرسالة السماوية، مما جاء في كتاب (الله تعالى) أبان ذلك قوله عز وجل : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾[١٦].

وإنَّ ما جاء به رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، من الكتاب والحكمة والإيمان الصحيح، والعلم النافع في الدنيا والآخرة، فقال تعالى في ذلك : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾[١٧]، فجعل (الله تعالى) الإسلام سيد الأديان، ورسوله سيداً وخاتماً للرسُلِ والأنبياء، وجعل عترة رسوله (عليهم السلام) اعمدةً للدين والرسالة.

ثم عرّج الشاعر في نهاية الأبيات على الممدوح كونه فرداً من عترة رسول الله (عليهم الصلاة والسلام)، من سلالة علي المرتضى (عليه السلام)، فتى فتيان بني هاشم ومغوارها، فبهم نصر الله الإسلام والمسلمين، وبهم أباد الكفار والمشركين.

إنَّ التناسق والترابط والتنوع في قصيدة المدح، أضاف لشعر الشاعر جمالية وحسن إصغاء من القارئ أو السامع، فابن المقرب قد ربط الممدوح بسلالة الهاشميين، فأضاف له قدراً على قدره، فقال في قصيدة مدح الخليفة العباسي المستنصر بالله، وكنيته أبو جعفر[١٨]: (البسيط)

قَـــوْمٌ هُـــمُ الـــرَّأْسُ مـــن فِهْـــرٍ وَغَيْـــرُهُمُ إِذَا يُقَـــــاسُ إلـــــى عَلْيَـــــاهُمُ ذَنَـــــبُ
الـــنَّجْمُ يَـــنْجُمُ ظُهْـــراً إِنْ هُـــمُ غَضِـــبُوَا والأَرْضُ تـــارَضُ زَهْـــرَاً إِنْ هُـــمُ رَكِبُـــوا
بِفضْـــــلِهِمْ نَطَـــقَ القـــرآنُ ممتـــدِحَاً لَهُـــمْ وَجَـــاءَتْ بِـــهِ مِـــنْ قَبْلِـــهِ الكُتُـــبُ
أَبُـــوْهُمُ الخَيْـــرُ عَبْـــدُ الله خَيْـــرُ أَبٍ وَجَـــدُّهُمْ سَـــيِّدُ البَطْحَـــاءِ إِنْ نُسِـــبُوا
لَـــوْلاَكُمُ يـــا بَنِـــي العَبَّـــاسِ لانْصَـــدَعَتْ عَصَـــا الخِلاَفَـــةِ صَـــدْعاً لَـــيْسَ يَنْشَـــعِبُ
عَنْهَـــا طَـــرَدْتُمْ وَلمَّـــا يَثْـــنِكُمْ رَهَـــبٌ بَنِـــي الطَّرِيـــدِ وَلَا اسْـــتُوْهاكُمُ رُعُـــبُ
وَلَا وَنَيْـــتُمْ إِلـــى أَنْ قـــامَ مـــاؤُهُمُ وَخَـــانَ دَلْـــوَهُمُ مِـــنْ عَقْـــدِهَا الكَـــرَبُ
وَعَـــادَ مِيْـــرَاثُكُمْ مِـــنْ كَـــفِّ غاصِـــبِهِ فِـــيكُمْ وأَهْـــلُ الـــدَّعَاوَى عَـــنْكُمُ غِيَـــبُ
يـــا خَيْـــرَ مـــنْ عَلِقَـــتْ أَيْـــدِي الرَّجـــاءِ بِـــهِ وَمَـــنْ سَـــوَاءٌ لَدَيْـــهِ التِّبْـــرُ والتُّـــرَبُ

كان الشاعر من أشد المعجبين لهذا الخليفة العباسي، بدأ قصيدته بمقدمة غزلية كعادته، ثم انتقل إلى المديح لشخصه، وبعدها أنتقل إلى المديح الديني لربط الممدوح الآخر بسلالة بني هاشم، كونه من العباسيين الذين يرجعون في نسبهم إلى العباس عم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، يمدحهم الشاعر بأنهم هم أصل فهر (قريش)*، والباقون من قريش، هم ذَنَبُ هذا الرأس، ويتحدث الشاعر عن كرامات العترة الطاهرة (عليهم السلام)، فيهم نزل القرآن الكريم، وبهم اكتمل الدين عند الناس، فهم خير الناس أباً (عبد الله)، وجدّاً (عبد الطلب) سيد سادات قريش نسباً.

ثم ينتقل الشاعر إلى الممدوح، ليوضح أحقيّتهم بالخلافة على سائر المسلمين، بعد أن غُوصِب هذا الحق ممَن لاحق لهم فيه، حيث أنَّ هذا التنقل للشاعر بين الأغراض الشعرية، في القصيدة الواحدة مع عدم الإطالة والأختصار في الكلام، أضاف للشعر جماليةً وحسناً، وقد قال أبو العباس المبرد(٢٨٦هـ) في ذلك : ((من الشعراء من يحمل المدح، فيكون ذلك وجهاً حسناً؛ لبلوغه الإرادة مع خلوه من الإطالة، وبعده من الإكثار، ودخوله في الاختصار)) [١٩].

وعلى الرغم من قلة الشعر الديني في ديوان ابن المقرّب، ومع هذه القلة فقد أضافت جمالية وروحانية، وصوراً جميلة من الحب والولاء لشخص الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) والعترة الطاهرة (عليهم السلام).

٢- المديح الاجتماعي :

إنَّ ابن المقرّب شخصية تأريخية وأدبية فريدة في تاريخ أدبنا العربي، ولا يقلُّ منزلة من منازل الشعراء الكبار في الأدب العربي قديماً، ولاسيما أنَّ شعره قد جُعِل ((سجلاً تاريخياً لأمجاده وأمجاد قومه..، إذْ يعد تاريخاً سجل فيه كل صغيرة وكبيرة للدولة العيونية وهم قومه الأقربون الذين تربّعوا على حكم البحرين فترة من الزمن))[٢٠]. وقد عدّت هذا التقاء الشاعر مع ابي فراس الحمداني في منهجه الشعري[٢١]، وأنَّ اشعاره في الديوان ومدائحه لعدد كبير من الشخصيات السياسية المعروفة من الملوك والخلفاء والأمراء والولاة وعامة الناس سواءً في مسقط رأسه بالبحرين أو في تنقلاته في العراق بين (الموصل، وبغداد، والبصرة)، و(ولصفات الممدوح عند ابن المقرب ثروة شعرية بما يملكه ممدوحه من صفات الكرم، والشجاعة، والبسالة، والاخلاق الرفيعة، وسماحة النفس التي كونت له معجماً شعرياً ثرياً حوت كل صفات الحسن والكمال)[٢٢]، وهدفه في ذلك هو ((ليكسب أراءه قوة حجاجية ، يكون معها قادراً على اقناع المتلقي بما يتبنى من أفكار ، وما يطرح من آراء)) [٢٣]

ومن هذه المدائح التقاؤه ملك الموصل بدر الدين لؤلؤ ومدحه بقصيدة لامية قال فيها [٢٤]: (البسيط)

حُطُّـــوا الرِّحَـــالَ فَقَـــدْ أَوْدَتْ بِهَـــا الرِّحَـــلُ مـــا كُلِّفَـــتْ سَـــيْرَهَا خَيْـــلٌ وَلَا إِبِـــلُ
بَلَغْـــتُمُ الغايـــةَ القُصْـــوَى فَحَسْـــبُكُمُ هـــذا الـــذي بِعُـــلاهُ يُضْـــرَبُ المَثَـــلُ
هـــذا هُـــوَ المَلْـــكُ بَـــدْرُ الـــدِّين خَيْـــرُ فتـــىً بِـــهِ تَعَلّـــقَ لِلرّاجـــي الغِنَـــى أمَـــلُ
هـــذا الّـــذي لـــو يُبـــاري فـــيضَ راحَتِـــهِ فَـــيْضُ البِحَـــارِ أضَـــحْى بـــهِ بَلِـــلُ
هـــذا الّـــذي لـــو لِلَيْـــثِ الغـــابِ نَجْدَتُـــهُ مـــا حـــلَّ إلّا بحيْـــث الشـــيح والنَّفَـــلُ
هـــذا الّـــذي بالنّـــدى والبـــأسِ يَعْرِفُـــهُ وبـــالتُّقَى كُـــلُّ مَـــنْ يَحْفَـــى وينْتَعِـــلُ
هـــذا الهـــمامُ الـــذي أقْصـــى مَطَالِبِـــهِ مـــا لا يُحَـــدُّ وأدْنـــى هَمِّـــهِ زُحَـــلُ

***

الخَيْـــلُ تَعـــرِفُ يـــومَ الـــرَّوعِ صَـــوْلَتَهُ بِحَيْـــثُ فـــي مُلْتَقاهَـــا يَبْطُـــلُ البَطَـــلُ
كـــمْ فـــارِسٍ فـــي ظَـــلَامِ النَّقْـــعِ غـــادَرَه بِضَـــرْبَهٍ لـــمْ يَشِـــنْ أُخْـــدُودَها فَشَـــلُ
تَخَالُـــهُ أَحْـــوَلاً ممّـــا بَهَامَتِـــهِ وقَبْـــلُ لا حَـــوَلٌ فيـــه ولا قَبَـــلُ

هذه القصيدة عُدَّت من عيون الشعر العربي، وهي بحق تستحق هذه التسمية فأبياتها بلغت (٦٨) بيتاً، لها وقعٌ وأثرٌ عميق في نفس الممدوح، وقيل إنَّ ياقوت الحموي(٦٢٦هـ) قد سمعها من الشاعر نفسه عند التقاءه معه في الموصل، فأشار إليها في معجمه[٢٥]. ونلحظ في هذه الأبيات وفي القصيدة كلها مبالغة في ارتفاع مكانة الآخر، فاسم الإشارة (هذا) وتكراره على طول الأبيات مرةً مع الضمير (هو)، ومع اسم الموصول (الذي)، وكلاهما يعود على واحد وهو الممدوح، فقد جعل منه بطلا يلجأ اليه كل ضعيف، وكريماً يجود بنفسه راحة لغيره.

وبعد ذلك يصف الشاعر الممدوح بعلو الهمة، وأنه نتيجة هذا العلو يحاول الوصول إلى أمر دونه كواكب السماء العالية، وأنه لقوته وعزته في ساحات الوغى لا يصد أمامه الأبطال، فهو فارس فيه علامات الشجاعة والبطولة والإقدام. ((وقد تفنن الشعراء في المديح، بأن يصفو أحسن خلقة الإنسان ويعددوا أنواع الفضائل الأربع وهي : العقل، والشجاعة، والعدل، والعفه)) [٢٦] حتى قيل إن ((كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع خصال مصيباً، والمادح بغيرها مخطئاً)) [٢٧].

لقد عمَّ الشاعر في اشعاره المدحية إلى ذكر هذه الفضائل بل كان يزيد عليها، وهذا ما حصل في قصيدة مدح ابن المقرب للملك الاشرف بن العادل قال في أبياتها[٢٨]: (البسيط)

أنِـــخْ فَهَـــذِي قَبَـــابُ العِـــزِّ والكَـــرَمِ وَقِـــلْ فُكُـــلُّ العُـــلا فـــي هـــذه الخِـــيَمِ
واعْـــفِ النَّجائِـــبَ مِـــنْ نَـــصٍّ وَمِـــنْ عَنَـــقٍ فَقَـــدْ بَلَغْـــتَ هُمَـــامَ العُـــرْبِ والعَجَـــمِ
فَمَـــا وَرَاءَ الّـــذِي هـــذِي القِبـــابُ لَـــهُ غِنـــىً لِـــرَاجٍ ولا عِـــزٌّ لمُهْتَضَـــمِ
واحْمَـــدْ سِـــوَاك فهـــذا خَيْـــرُ منتجَـــع واخْطُـــطُ عَصَـــاك فَهَـــذا خَيْـــرُ مُعْتَصَـــمِ
هـــذا الـــذي كُنْـــتَ تَـــدْعو اللهَ مُبْـــتَهِلاً فـــي أنْ تَـــرَاهُ فَهَـــا أبْصِـــرْتُ مِـــن أمَـــمِ
هـــذا هـــو البَحْـــر إلّا أنَّ وارِدَهُ يَعُـــبُّ مِـــنْ مَنْهـــلِ عَـــذْبِ الحَيَاشَـــبِمِ[٢٩]
هـــذا هـــو اللَّيْـــثُ إلّا أنَّ هِمَّتَـــهُ مُـــذْ كـــانَ صَـــيْدُ المُلُـــوكِ الصـــيِّدِ لا الـــبُهُمِ[٣٠]
هـــذا هـــو السَّـــالِبُ الجَبَّـــارَ مُهْجَتَـــهُ فـــي حَيْـــثُ يَكْثُـــرُ خَـــبْطُ الخَيْـــلِ فـــي اللِّمَـــمِ
هـــذا الـــذي لـــو زُهَيْـــرُ رَاءَ أَيْسَـــرَ مـــا يُعْطِـــي لَعَـــدَّى إليـــهِ القَـــوْلَ عَـــنْ هَـــرِمِ

إنَّ الشاعر في مطلع هذه القصيدة، والقصيدة التي قبلها قد بدأ بالغرض الرئيس للقصيدة، وهو المدح دون مقدمة طللية خارج غرض المدح للآخر، وهذا هو التجديد والتنوع في قصائد ابن المقرب، وهذه القصيدة بلغت (٦٥) بيتاً في مدح الملك الاشرف، فهو يمدحه لكرمه وقوته وعثرته واتساع ملكه الذي فاق كل الأملاك التي أذعنت له العرب والعجم، وإنْ كان هذا يدل على شيء فهذا دليل على أنَّ الآخر سليل عزٍ، طيب النفس، قوي الأصل من أصول عريقة، وآباء كرام ومن أجواد العرب الذين كان لهم النصر والغلبة. وعلى هذا جعل الشاعر الآخر له حق التكبر والزهو بنفسه وبسلالته الكريمة.

والظاهر من الأبيات الشعرية أن الشاعر كان متلهفاً لرؤية الآخر؛ لمبالغته في التشبيه في أنه كالبحر الزاخر عطاياه لمن يورده، وشدة الكرم وحسن الخُلق، وشجاعة لا توصف، وأنَّ جمال التشبيه يكمن في الأبيات الثلاثة الأخيرة، حيث إنه يختمها بمبالغة شديدة منه، إذْ جعل ممدوحه في قمة الممدوحين بقوله : (هو الليث، هو السالب الجبار) لتأكيد صفات القوة والبأس والشجاعة فيه حتى لو رآه الشاعر الجاهلي زهير بن ابي سلمى لتعدّى في مدحه كل ممدوحيه ومنهم هرم بن سنان.

إن هذا النوع من المبالغة في وصف الآخر دليل على حب الشاعر للآخر واعتزازه بصداقته، وهذا النوع من المديح لم يقتصر على الملوك فقط، وإنما الخلفاء أيضاً كان لهم نصيبٌ من قصائد ابن المقرب، فقد قال في الخليفة الناصر لدين الله الذي مدحه في ثلاث قصائد طويلة، إذْ قال[٣١]: (الطويل)

يُقُولـــونَ لـــي : هـــلَّا امتـــدحْتَ مَعَاشِـــراً لهُـــمْ أَوجُـــهٌ غـــرٌّ وأَيْـــدٍ مـــوانِحُ
فَقُلْـــتُ وقَـــدْ فاضَـــتْ مِـــنَ الغَـــبْنِ عَبْرَتـــي ذَرُونـــي فَلِـــي طَـــرْفٌ عَـــنِ النـــاسِ طـــامِحُ[٣٢]
فلـــوْلَا أمِيـــرُ المـــؤمِنينَ وذِكْـــرُهُ لمَـــا قَطَعَـــتْ بِـــي البيـــدَ هُـــوجٌ مشـــائِحُ[٣٣]
ولا خُضْـــتُ أمـــواجَ البِحـــارِ كأنَّهـــا جِبَـــالٌ ترامـــى بـــي جَنُـــوبٌ وبـــارِحُ[٣٤]
هـــو البَحْـــرُ والنَّـــاسُ الـــذينَ تَـــرَوْنَهُمْ سَـــوَاقٍ طَمَـــتْ مِـــنْ فَيْضِـــهِ وهْـــوَ طـــافِحُ
تَجُـــودُ ذَوو الأَفضـــالِ مِـــنْ فَضْـــلِ جُـــودِهِ فَيَعْلـــوُ لَهُـــمْ شَـــأْنٌ ويكْثُـــرُ مـــادِحُ
أَأَتْـــرُكُ مَـــدَّ النِّيـــلِ فـــاضَ وأَبْتَغِـــي فَرَاشـــاً تُعَفِّـــي مـــاءهُنَّ البـــوارِحُ
وإنَّ امْـــرأً شَـــطُّ الفُـــراتِ تجاهَـــهُ ويَطْلُـــبُ أَمـــواهَ الرَّكايـــا لَقَـــامِحُ
وإنِّـــيَ إنْ سَـــدَّيْتُ مَـــدْحاً لِغَيْـــرِهِ جَـــديرٌ بـــأَنْ تَنْسَـــدَّ عنِّـــي المنـــاجِحُ
هو النّاصِرُ بْن المُستضيء وقِدْحُهُ الـ ـــمُعَلَّى وَمَـــا فـــي عُـــودِهِ الصُّـــلْبِ قـــادِحُ

هذه الأبيات من قصيدة المدح لابن المقرب والتي تبلغ (٦٩) بيتاً شعرياً في الخليفة العباسي الناصر لدين الله؛ لصلته القوية به، يبدأها بمقدمة غزلية ثم بالشكوى عن ذاته، وبعدها انحدر إلى الغرض الأساسي وهو المديح للآخر، ويبدأ الشاعر بإفتتاحية حوارية بقوله : (يقولون لي)، فيجيب وفي كلامه شيء من الاتحاد النفسي مع الآخر، وحالة من الاندماج والتواصل بينهما، فقد أتخذ من الخليفة مكاناً مرتفعاً يأوي إليه، فلأجله ركب البحار والصعاب وحرارة البراري للقاء؛ لأنه يرى فيه بحر العطاء والقوة والناس سواقي تنبع منه، وهذا القول فيه مبالغة شديدة، فقد جعله الأولى بالمدح دون غيره، لأن الجميع قد أغمرهم بعطاياه، فكرمهم نابع من فيض كرمه عليهم.

ويستفهم الشاعر (بالهمزة) في (أأترك) نهر النيل وفيضه وعطاياه واتوجه إلى النزر والقليل، وحتى الفرات يطلب الكرم والعطاء منه، ويختم أبياته بذكر اسم الممدوح مؤكداً بأنه لا غبار ولا شائبة عليه. إنَّ هذا القول فيه مبالغة شديدة، وقد قال ابن سنان الخفاجي في ذلك إنه : ((تجوز المبالغة؛ لأن الشعر فن، والفن يُلتمس فيه الجمال لا الحقيقة، ... وأمّا المبالغة في المعنى فإن الناس مختلفون في حمد الغلو وذمّه، فمنهم من يختاره ويقول : أحسنُ الشعر اكذَبُه)) [٣٥]، وقال في موضع آخر في مدح الخليفة يجب أن يكون ((بتأييد الدين وتقوية أمره، ومحبّة الناس وطاعتهم، والتقى، والورع، والرحمة، والرأفة، وإقامة العدل، وشرف الحسب، وحسن السياسة والتدبير، والاضطلاع بالأمور، والحلم، والعفو، والعلم، وحفظ الشرع، والجمال، والبهاء، والهيبة والشجاعة، وكرم الأخلاق ولينها، وما يجري هذا المجرى))[٣٦].

إنَّ ابن المقرب قد ذكر في مدائحه الفضائل والصفات المتوفرة في الممدوح، ومنها ما ذكره في مدح الخليفة المستنصر بالله العباسي في قصيدة من (٦٨) بيتاً، قال فيها[٣٧]: (البسيط)

قَـرَّتْ بِـهِ الأَرْضُ مِـنْ أَقْصَـى التُّخُـومِ وَقَـدْ ... كَـادَتْ لِفَقْـدِ إِمَـامِ البِـرِّ تَنْقَلِـبُ
وأَصْـبَحتْ أَيْكَـةُ الإِسْـلَامِ نَاضِـرَةً ... يَـدْعُو المُسِـيمَ إِلَيْهَـا المـاءُ والعُشُـبُ
واهْتَـزَّتِ الأَرْضُ مِـنْ رِيٍّ فَـلَا طَلَـقٌ ... للمـاءِ يُـذْكَرُ فـي حَـيٍّ ولا قَـرَبُ
وأشـرَقَتْ بَهْجَـةً دارُ السَّـلَام بِـهِ ... حَتَّـى تَمنَّـتْ سَـنَاهَا السَّـبْعَةُ الشُّـهُبُ
وأَظْهَـرَ العُجْـبَ شَـطَّاهَا ودِجلَتُهـا ... ومـا أحاطَـتْ بِـهِ الأَسْـوَاقُ والرُّحُـبُ
وفُتِّحـتْ لِلقِـرَى أَبْـوابُ ذِي كَـرَمٍ ... جِفَانُـهُ خُلُـجُ الصِّـيْنيِّ لا العُلَـبُ
وأَلْـفُ أَلْـفٍ تزِيـدُ الضِّـعْفَ جـادَ بِهَـاً ... فـي كُـلِّ عـامٍ وقَلَّـتْ عِنْـدَما يَهَـبُ
وَمِثْـلُ ذَلِـكَ أَضْـعَافاً مُضَـاعَفَةً ... أَعْطَـى وقـالَ : قُصَـارى كُـلِّ ذِي العَطَـبُ
فَمـا يَمُـرُّ بِـهِ يَـوْمٌ وَلَـيْسَ بِـهِ ... لَـهُ مَوَاهِـبُ تُسْـتَزْرَى لهـا السُّـحُبُ
فـاليَوْمَ مـا فَـوْقَ ظَهْـرِ الأَرْضِ قاطِبَـةً ... إِلَّا أَمـرُؤٌ ولَـهُ مِـنْ مالِـهِ نَشَـبُ

هذه الأبيات من قصيدة مدح للخليفة المستنصر بالله، بدأها الشاعر بمقدمةٍ غزلية وبعدها اتجه إلى غرضه الأساس وهو المدح، فقد تمادى الشاعر في مدح الآخر بأن الأرض كانت جرداء مقفرة، لا ماءُ ولا شجرُ، والكل ينظر هذا الخليفة الذي به أشرقت بغداد، وأضاءت معالمها بظهوره، وأضاف الشاعر في مديحه للآخر أنَّ من صفاته الكرم والعطاء لديه، قارنه بدجلة الخير الذي يحيطه الأسواق والخيرات، ونحن نعلم أنَّ ذكر الأنهار عند الشعراء العرب في أشعارهم يعني مجيء الخير والبركة في ذلك المكان.

إنَّ المبالغة في الأنا تجاه الآخر خارجة عن الحيز الطبيعي في الأبيات الخمسة الأخيرة، سعياً منه نحو التميز في الوصول إلى أعلى مراتب الوصف والتشبيه، فقوله : ((وألف ألفٍ تزيدٌ الضعف ابواب ذِي كرمٍ))،

هو أقصى مراتب الكرم ويؤكدها في البيت الذي يليه : ((ومثل ذلك أضعافاً مضاعفة))، ويوعز ذلك إلى كثرة ماله الذي لا يضاهيه أحد على حدِّ قول الشاعر، فحبُّ الشاعر وأعجابه بالآخر جعله يظهر مواطن الجمال فيه ويركّز فيها؛ لأن ((الغرض من المدح رسمُ صورة مُثلى للإنسان الأمثل بغية التأسي به)) [٣٨].

هذا ما يخص مدح الخلفاء في ديوان ابن المقرب، وبعدها ننتقل إلى مدح الأمراء الذي شغل باعاً واسعاً في قصائده، فقد بلغ نحو (٤٣) قصيدة مدح في (٢٣) أمير عربي من العراق والبحرين، وأغلبهم في أولاد عمومته، ومن أولى هذه القصائد، قصيدة مدحٍ في الأمير الفضل بن محمد بن أحمد العيوني الذي كتب في مدحه خمس قصائد طويلة، ومن هذه القصائد قوله[٣٩]: (الكامل)

قَسَماً بأعْرافِ الجِيادِ الضُّمَّرِ وبِمَا أَثَرْنَ مِنَ العَجَاجِ الأكْدَرِ
وَبِما حَمَلْنَ إلى الوَغَى مِنْ ماجِدٍ طَلْقِ المُحَيَّاذِي جَبين أَزْهَرِ
وبِكَلِّ أَبْيَضَ صارِمٍ ومُفَاضَةٍ كالنَّهْيِ سابِغَةٍ وعالٍ أَسْمَرِ
لو قيلَ مَنْ في الأرْضِ أعْلى هِمَّةٍ وأَعَمُّ نَافِلةٍ وأشْرفُ مَعْشَرِ
ما قِيلَ إلّا ذاكَ فَضْلٌ ذو العُلا حامِي حِمَى الآباءِ سامِي المَفْخَرِ
الماجِدُ الأحْسابِ والمَلِكُ الّذي يَغْشَى الوَغَى فَرْداً بِوَجْهٍ مُسْفِرِ
الواهِبُ الجُرْدَ العِتَاقَ يَقُودُها صَفْرُ المَجاسِدِ مِنْ النَّجيعِ الأحْمَرِ
ومُقَطَّرُ البَطَلِ الهِزَبرِ بِطَعْنَةٍ تَقْضِي قَضيَّتَهُ ولمّا يسْترِ
وَمُفلِّقُ الهَامَاتِ في ضَنْكِ الوَغَى بِمذلَّقِ الحَدَّيْنِ صافِي الجَوْهَرِ

هذه الأبيات مقدمة لقصيدة مدحية في الأمير الفضل بن محمد، والتي بلغت أبياتها (٤١) بيتاً، بدأها بالمدح من أولها وهو يقسم بأحد أجزاء الخيل وهو ((شعر عنق الفرس)) [٤٠]، لجماله وتوغله في قلب العدو وتشتت صفوفه، حاملاً الأمير الفضل بن محمد وهو يشق صفوفهم فيثير الغبار في كل مكان، وقد تكون هذه الصورة استنبطها من القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ **وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا** ﴾[٤١].

وقد مدح الشاعر ممدوحه (ابن عمه) بصفات القائد البطل في ساحات الوغى، الذي يتحلى بالشجاعة، والحلم، والعزم، والحزم، وعلو الهّمة في المعارك الذي لا يهاب الموت، مرعب الاعداء، عادل حازم كحد السيف، يريد الشاعر بهذا المديح والتشبيه البليغ، غاية شريفة مثلى –كما قلنا– في سبيل استرجاع املاكه من نخيل وزروع، وفي سبيل أن يكون واحداً من ذويه، وخاصة أنه لا يقل عنهم، محتداً، وحسباً، وعقلاً، كما أنه لم ينس في أماديحه عامة عزة النفس وقوة الشكيمة وشعوره بجليل مكانته بين قومه وعشيرته ومحبيه[٤٢].

ومن مدائحه الأُخرى للأمراء أيضاً، مديحه شمس الدين باتكين أمير البصرة، والذي كان بينهما علاقة صداقة، فقد كتب فيه (٩) قصائد، ومن هذه القصائد، قصيدة قال فيها[٤٣]: (الرجز)

يـــــا أيُّهـــــا البَصْـــــرَةُ تِيهـــــي بـــــهِ فإنَّـــــهُ المَلْـــــكُ الأغَـــــرُّ الهُمَـــــامُ
وإنَّـــــهُ أوْحَـــــدُ هـــــذا الـــــوَرَى حِلْمـــــاً وعِلْمـــــاً ونَـــــدىً واعتِـــــزامْ
بَـــــثَّ بِهَـــــا الأمْـــــنَ وَرَدَّ المُنَـــــى غَضّـــــاً وكانَـــــا آذَنَـــــا بانْصِـــــرامْ
وَلَـــــمْ يُصَـــــعِّرْ خَـــــدَّه مُعْرِضـــــاً كِبْـــــراً وَلَـــــمْ يفضـــــضْ لجَـــــوْرٍ خِتـــــامْ
يابَـــــا شُـــــجَاعٍ ياثِمَـــــالَ الـــــوَرَى يـــــا طـــــاهِراً مِـــــنْ كُـــــلِّ ذمٍّ وَذَامْ[٤٤]
يـــا شِـــبْهَ ذِي القَـــرْنَيْنِ مـــن رَهْطِـــهِ الْـــ ـــغُرِّ بـــن العِـــيصِ المُلُـــوكِ الكِـــرامْ[٤٥]
كأنَّمـــــا البَصْـــــرةُ مُـــــذْ جُزْتَهَـــــا أَشـــــلاَء غِمْـــــدٍ سُـــــلَّ مِنْـــــهُ الحُسَـــــامْ
بُـــــدِّلَتِ الوَحْشِـــــةَ مِـــــنْ أَنْسِـــــهَا وأُلْبِسَـــــتْ بَعْـــــدَ الضِّـــــياءِ الظَّـــــلامْ
وكـــــلُّ أرْضٍ فَقَـــــدَتْ شِمَسَـــــهَا غَشَّـــــى الـــــدُّجَى ســـــاحاتِها والخِيَـــــامْ
والآنَ إذْ عُـــــدَتَ إليْهَـــــا زَهَـــــتْ وابتَسَـــــمتْ للبِشْـــــرِ أيَّ ابتســـــامْ
فَـــــلا خَلَـــــتْ مِنْـــــكَ الرَّعايـــــا وَلا زِلْـــــتَ لِمُـــــرفَضَّ المَعـــــالِي نِظَـــــامْ

هذه النص من قصيدة المدح في شمس الدين باتكين والتي بلغت (٥٢) بيتاً، بعد سفره إلى واسط ورجوعه إلى البصرة، وهو ينادي البصرة (يا أيّها البصرة) وكأن به يحسدها على وجود الممدوح فيها، فمدحه بالحلم، والعلم، والندى، والعزم، والتواضع، والطهارة، والحزم في إدارة البصرة شبهاً إياه بذي القرنين، الملك الصالح الذي ذُكِرَ في القرآن الكريم، ويصور حال البصرة بعد رحيله وحين عودته إليها برجوع الروح، والضياء، والأمل، والأبتسامة إليها؛ لإنها فقدت شمسها فأظلَّمت، هذا التشبيه والمثالية في الحكم للممدوح ليس جديداً على الشعراء العباسيين ((في مدح الخلفاء والولاة يضيفون إلى هذه المثالية، مثالية الحكم وما ينبغي أن يقوم عليه من الأخذ بدستور الشريعة وتقوى الإله والعدالة التي لا تصلح حياة الأمة بدونها، وبذلك كانوا صوتاً قوياً .. يهتف في آذان الحكام بما ينبغي أن يكونوا عليه في سلوكهم وسياستهم)) [٤٦].

وقد يكون الحاكم أحياناً سيء السلوك ((ولكن الشعراء يمدحونه بنفس هذه المثالية الكريمة؛ لأنهم لا يمدحونه من حيث هو، وإنما يمدحونه خليفة للمسلمين وموضع آمالهم، وكأنما يريدون أن يرفعوا أمام عينه الشعارات التي تطلبها الأمة في خليفتها وراعيها، لعله يتوب إلى طريق الرشاد)) [٤٧].

وبعد الإنتهاء من مدائح الأمراء، هناك شخصيات معروفة مدحهم بشعره في قصائد مدحية؛ لأنه كان قريباً منهم وبينهم مودة وصداقة، ومن تلك المدائح قصيدة ميمية قالها في الشيخ محب الدين عبد القادر بن داود بن محمد الواسطي الذي جاء في مطلعها[٤٨]: (الكامل)

الْقَـــــتْ إِلَيْـــــكَ مَقَادَهَـــــا الأَيَّـــــامُ وأَمَـــــدَّكَ الإِجْـــــلالُ والإِعْظَـــــامُ
وَمَشَـــى إِلَيْـــكَ الـــدَّهْرُ مِشْـــيَةَ خاضـــعٍ وَقَضَـــى بِمَـــا تَخْتـــارُهُ العـــلَّامُ
وبَقِيْـــتَ مـــا بَقِـــيَ الزّمَـــانُ مُخلَّـــداً فـــي حَيْـــثُ تَقْعُـــدُ والأَنَـــامُ قِيَـــامُ
وَحَبَـــاكَ رَبُّـــكَ بِالكرَامَـــةِ والرِّضَـــا والبِـــرِّ مـــا نَسَـــخَ الضِّـــيَاءَ ظـــلَامُ
فَلأَنْـــتَ حِـــيْنَ تُعَـــدُّ عَـــيْنُ زَمَانِنَـــا وبِصِـــدْقِ قَـــوْلِي يِشْـــهَدُ الإِسْـــلامُ
بِـــكَ يـــا مُحِـــبَّ الـــدِّينِ طالـــتْ فَأَعتَلَـــتْ شَـــرَقاً علـــى الخَطِّيَـــة الأَقْـــلامُ
أَحْيَيْـــتَ بِشْـــراً والجُنَيْـــدَ وَعَـــامِراً زُهْـــداً وكُـــلٌّ إِذْ يُعَـــدُّ إِمـــامُ
وأَقَمْـــتَ لِلْقُرشِـــيِّ فـــي آرائِـــهِ حُجَجـــاً يُقَصِّـــرُ دُونَهَـــا النَّظَّـــامُ
لَـــوْراءكَ الثَّـــوْرِيُّ أَعْلَـــنَ قـــائِلاً أَنْـــتَ الغَمَـــامُ وَمَـــنْ سِـــوَاكَ جَهَـــامُ[٤٩]

هذا النص من قصيدة مدح في (٢٢) بيتاً في الشيخ محب الدين الواسطي، الذي كان عالماً، فقهياً بالمذهب الشافعي أصولاً وفروعاً، عُرِف بالورع، والزُهد، والمروءة، والتواضع، ومعرفة حَسِنة بالأدب[٥٠]، فكتب الشاعر هذه القصيدة بحقه ذاكراً كل صفاته وزهده وتواضعه بحيث جعل الدنيا تسير إليه لا هو يسير إليها؛ لزهده عن ملذاتها فاختصه (الله تعالى) بالعطاء والكرامة، والمنزلة الرفيعة في المجتمع بشهادة المسلمين.

وزاد الشاعر في منزلة ممدوحه (الآخر) بعلمه وتقواه الذي احيا زُهْدَ ((بشر الحافي، وعامر الشعبي، وهؤلاء كلهم من الزُّهّاد الصالحين)) [٥١]، ويذكر الشاعر دور الشيخ في الدفاع عن آراء القرشي وهو ((محمد بن إدريس الشافعي)) [٥٢]، عند المشايخ الآخرين المعروفين بالتزمّتِ في آرائهم الدينية.

وينهي الشاعر أبياته يذكر سفيان الثوري من بني ثور، وكان زاهد زمانه بالبصرة[٥٣]، أنه لو رأى الشيخ محب الدين لجعله زاهد وعالم زمانه على العلماء والزهاد الموجودين في وقته، وإنَّ باقي القصيدة على هذا المنوال من المديح للآخر وهذا دليل على شدّة حبّه واعتزازه بصداقة هذا العالم الجليل.

ولم يكن الشيخ محب الدين الوحيد الذي تعلّق به الشاعر وصحبه، بل كان هناك آخرون لهم منزلة رفيعة عند الشاعر، ومنهم الصاحب كمال الدين أبا الكرم محمد بن علي من بني قيس بن ثعلبة، من سكنة الموصل، قال فيه قصيدة لامية من (٦٢) بيتاً، قال فيها[٥٤]: (الطويل)

بَنَائُـــكَ مِـــنْ مُغْـــدَوْدِقِ المُـــزْنِ أَهْطَـــلُ وَبَاعُـــكَ مِـــنْ رَضْـــوَى وثَهْـــلانَ أَطـــوَلُ[٥٥]
ودَارُكَ دارُ الأَمْـــنِ مِـــنْ كُـــلِّ حَـــادِثٍ ومَنْزِلُـــكَ المَعْمُـــورُ لِلْمَجْـــدِ مَنْـــزِلُ
إِذَا عُـــدَّ أَرْبَـــابُ النَّباهَـــةِ والعُـــلا فَأَنْـــتَ عَلَـــى رَغْـــمِ المُعَـــادِيْنَ أَوَّلُ
تَجـــاوَزْتَ مِقْـــدَارَ الكَمَـــالِ فمـــا تَـــرَى عُـــلاً كـــامِلاً إِلَّا وعَلْيـــاكَ أَكْمَـــلُ
وحُـــزْتَ خِـــلالَ الفَضْـــلِ مِـــنْ كُـــلِّ وِجْهَـــةٍ فَمَـــا فاضِـــلٌ إِلَّا وأَنْـــتَ المَفَضَّـــلُ

***

خَلِيْلَـــيَّ مـــا كُـــلُّ الرِّجـــالِ وإنْ عَلَـــوا كمـــــالٌ ولا كُـــــلُّ الأقـــــاليمِ مَوْصِـــــلُ
ولا كُـــــلُّ نَبْـــــتٍ تُخْـــــرِجُ الأرضُ مَأكـــــلٌ ولا كُـــلُّ مـــاءٍ تُبْصِـــرُ العَـــيْنُ مَنْهَـــلُ
وهـــو الماجِـــدُ النَّـــدْبُ الـــذي لا جَنَابُـــهُ بِـــوَعْرٍ ولا بـــابُ النَّـــدى مِنْـــهُ مُقْفَـــلُ
هَمَـــامٌ إِذَا استَسْـــقَيْتَ مُـــزْنَ بَنَانِـــهِ سَـــقَتْكَ حَيـــاً مِـــنْ فَيْضِـــهِ البَحْـــرُ يَخْجَـــلُ
جَـــوَادٌ إِذَا مـــا الخُـــورُ عـــامَ فِصَـــالُها وَلَـــمْ يَبْـــقَ فـــي البُـــزْلِ القنـــاعِسْ مَحْمَـــلُ

أجاد الشاعر في إظهار مواطن الكرم في الآخر الممدوح، وبالغ في ذلك في أنَّ عطايا يده أوسع خيراً من المطر الغزير، وداره أمانٌ لكلِّ من لجأ إليه، فهو باب المعالي، والنباهة، والكمال، وهو الفاضل المفضل على حدِّ مدح الشاعر له؛ لأنه تجاوز مقدار الكمال والفضيلة، وهذا قد يتنافى مع الدين الإسلامي الحنيف، فالكمال لله وحده لا شريك له.

وكذلك الحال في الأبيات الأخيرة، والتي بموجبها جعل الشاعر ممدوحه هو الأفضل بين قومه، فوصفه بصفات (الكمال، والماجد، والهمام، والجواد) ليجعله متفرداً واحداً لا ثاني له بين الآخرين، وبالتالي يثبت فيه أروع صورة من صور الرمز التي كان يتمثلها في ذهنه، فالغلو في الأبيات واضح وصولاً إلى حد الشذوذ والمبالغة الفاحشة، وهذا ليس غريباً على الشعراء القدماء في إظهار محاسن ممدوحيهم على حساب الآخرين.

وبعد الإنتهاء من مديح الآخر، علمنا أن صورة الآخر عند ابن المقرب وعند غيره من الشعراء ((لا تظهر بشكلٍ نمطي واحد، بل تبدو بأنماطٍ متعددة لا تحتمل نسقاً محدداً أو ثابتاً، بل تلازمه سمة التبدّل والتغير وفقاً لطبيعة الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية، وتحكم علاقة الذات بالآخر علاقة تأثر وتأثير متبادل، ويؤثر كل منهما في الآخر ويتأثر به، دون أن يتماهى أحدهما على الآخر تماماً)) [٥٦].

الخاتمة :

وبعد هذه الرحلة في قصائد المديح ضمن ديوان علي بن المقرب العيوني وصلنا الى عدد من النتائج منها:

١- ان ابن المقرب من الشعراء الذين نظموا في المديح بشكل واسع وبنسبة كبيرة تعدت نصف قصائده في الديوان قياسا بأغراضه الشعرية الاخرى .

٢- ومن خلال التمعن في قصائد هذا الشاعر الكبير وجدت تعدد المديح عنده الى المديح الديني في الرسول الاعظم وآله الطيبين والاطهار (عليهم السلام) والمديح الاجتماعي في الملوك والأمراء والوزراء القضاة والعمل على تعظيمهم وتوحيدهم.

٣- تعدى المديح عند ابن ابي المقرب الى مدح الذات، والأهل، والقوم، والعشيرة، فضلا عن الوطن (الاحساء) الذي شغل احساسه وهو في غربته .

٤- لم تخرج قصائد ابن المقرب من موقف التبعية للشعراء الاقدمين ، وهو لم يعمل على ازاحة الاسس القديمة او مزاحمتها بل كانت قصائده المدحية مثالاً للجمال الكلاسيكي الذي يضع في اعتباره دائما مبدأ التناغم الموسيقي المنتظم والمستوحى من التراث العربي القديم.

٥- امتازت قصائد المدح عند ابي المقرب بالتوحيد بين موضوعات القصيدة الواحدة حيث تقدمتها مقدمة طللية او غزلية (او حكمة) اعقبها وصف الرحلة وصولا الى الممدوح وما ينبغي ان يقال له .

الهوامش والمصادر:

(١) المديح في كتاب عشرة شعراء عباسيون لشاكر العاشور : أحمد عبد الله صالح ، إشراف : أ.د. زهرة خضير عباس ، مجلة الاستاذ ,جامعة بغداد , كلية التربية ابن رشد للعلوم الانسانية , مج٦١ ،ع٢ ، م٢ ،٢٠٢٢ :١٨.

(٢) يُنظر الأدب العربي في العصر العباسي : ناظم رشيد، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، العراق، ١٩٨٩ : ٢١ .

(٣) يُنظر ابن مقرب العيوني، حياته وشعره : فهد عوض بن وريده : ٤٢ .

(٤) يُنظر المدائح النبوية في الأدب العربي : زكي مبارك، دار المحجة البيضاء، مصر الجديدة، ط١، ١٩٣٥ : ١٧ .

(٥) يُنظر المديح النبوي : محمد داني، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، ط١، ٢٠٢٢ : ١٣-١٤.

(٦) المصدر نفسه : ١٤ .

(٧) فنية شعر المدح النبوي في الأندلس : عمر ابراهيم توفيق، مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، ع١، مج٥، ٢٠١٠ : ٧ .

(٨) ابن مقرب العيوني، حياته وشعره : سامي جاسم عبد العزيز المناعي : ١٢٠.

(٩) الديوان : ٢/٧٦٥-٧٦٦.

(١٠) تجليات معاني الأم في الشعر العربي الحديث ، دراسة موضوعية : حامد صالح جاسم ، مجلة الأستاذ ، جامعة بغداد ، كلية التربية أبن رشد للعلوم الإنسانية ، مج٦٠ ، ع٣ ،٢٠٢١ : ٨.

(١١) يُنظر المديح النبوي : ٢٦ .

(١٢) الديوان : ٢/٨٥٢-٨٥٣ .

(١٣) الذائم : العيب. معجم اللغة العربية المعاصرة : احمد مختار عمر، عالم الكتب للطباعة، القاهرة، مصر، ط١، مج١، ٢٠٠٨ : ٨٣٣ مادة (ذ.ي.م).

(١٤) الزائم : الغاضب. معجم اللغة العربية المعاصرة : ١٠١١ مادة (ز.و.م).

(١٥) الديوان : ٢/١١٧٤-١١٧٥.

(١٦) سورة التوبة : الآية ٣٢ .

(١٧) سورة التوبة : الآية ٣٣ .

(١٨) الديوان : ٢/١٢٠٣-١٢٠٤.

* قريش هم : بنو فِهْر بن مالك بن النَّضْر بن كنانة بن خُيمة بن مُدرِكة ابن الياس بن مُضَر بن نزار بن مَعَدّ بن عدنان . (جمهرة أنساب العرب : أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، تحقيق : عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط٥، ١٩٨٢ : ٤٦٤).

(١٩) العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده : ابو الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ج٢، ١٩٥٥ : ١٣٧ .

(٢٠) ابن مقرب العيوني، حياته وشعره : فهد بن عوض بن وريده : ٤١ .

(٢١) يُنظر : المصدر نفسه : ٤١ .

(٢٢) القيم الشعرية في شعر زمرك (دراسة فنية): م.د. افراح علي عثمان، مجلة الاستاذ، جامعة بغداد، كلية التربية ابن رشد للعلوم الانسانية، العدد ٢١٥، ٢٠١٥ : ٤٠.

(٢٣) حجاجيات الخطاب الاجتماعي عند علي القاسمي :سهاد حسن مطشر الشمري ، إشراف : أ .م.د.نعمة دهش فرحان الطائي ، مجلة الأستاذ ، جامعة بغداد ، كلية التربية أبن رشد للعلوم الإنسانية ، مج٥٩ ،ع٤ ،م١ ، ٢٠٢٠ :٧.

(٢٤) الديوان : ٦٩٤/٢-٦٩٥-٦٩٦-٦٩٨.

(٢٥) يُنظر ابن مقرب العيوني، حياته وشعره : فهر بن عوض بن وريده : ٣٥.

(٢٦) نقد الشعر : ابو الفرج قدامة بن جعفر : تحقيق : محمد عبد المنعم الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د. ت : ٩٦-٩٧.

(٢٧) المصدر نفسه : ٩٦ .

(٢٨) الديوان : ١٠١١-١٠١٢.

(٢٩) شَبِم : البارد. لسان العرب : ٢٢/٧ مادة (شبم).

(٣٠) الصيَّد : مصدرها الأصْيَد : وهو الذي يرفع رأسه كِبراً. لسان العرب : ٤٥١/٧ مادة (صيد).

(٣١) الديوان : ٢٢٥/١-٢٢٦.

(٣٢) الطامح : المرتفع المفرط في التكبر. لسان العرب : ١٩٨/٨ مادة (طمح).

(٣٣) الهُوج : الطوال السراع. لسان العرب : ١٥٥/١٥ مادة (هوج).

(٣٤) البارح : الريح الحارة في الصيف. لسان العرب : ٣٦٣/١ مادة (برح).

(٣٥) الشعر في العصر العباسي الأوَّل : غازي طليمات وعرفان الأشقر، دار قنديل للنشر والتوزيع، دبي، دولة الامارات العربية المتحدة، ج٢، ٢٠١٨ : ٥٧ .

(٣٦) الشعر في العصر العباسي الأوَّل : ٥٧ .

(٣٧) الديوان : ١٢٠٢/٢-١٢٠٣.

(٣٨) الشعر في العصر العباسي الأوَّل : ٥٩ .

(٣٩) الديوان : ٣٨٩/١-٣٩٠.

(٤٠) الديوان : ٣٨٩/١.

(٤١) العاديات : الآيات ١-٤.

(٤٢) يُنظر ابن مقرب حياته وشعره : عمران محمد العمران : ٩٦-٩٧.

(٤٣) الديوان : ١٠٠٤/٢-١٠٠٥.

(٤٤) الثِمَال : الغياث. لسان العرب : ١٣٠/٢ مادة (ثمل).

(٤٥) العيص : كنية لابن اسحق بن إبراهيم (عليه السلام) . لسان العرب : ٤٩٨/٩ مادة (عيص).

(٤٦) تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأوَّل : شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط١٦، ١٩٦٦ : ١٦٠.

(٤٧) المصدر نفسه : ١٦١.

(٤٨) الديوان : ٩٩٠/٢-٩٩١-٩٩٢.

(٤٩) الجَهام : السحاب الذي لا ماء فيه. لسان العرب : ٤٠٣/٢ مادة (جهم).

(٥٠) يُنظر الديوان : ٢/٩٩٠.

(٥١) الديوان : ٢/٩٩١.

(٥٢) المصدر نفسه : ٢/٩٩١.

(٥٣) يُنظر الديوان : ٢/٩٩٢ .

(٥٤) الديوان : ١/٦٢٤-٦٢٥-٦٢٩-٦٣٠.

(٥٥) المغدودق : الكثير المطر. لسان العرب : ١٠/٢٦ مادة (غدق).

الباعُ : السَّعة في المكارم. لسان العرب : ١/٥٣٨ مادة (بوع).

(٥٦) صورة الآخر في الشعر العربي : سعد فهد الذويخ : ١٢ .

Praise in the poetry of Ali bin al-Muqarrab al-Ayyouni

Adnan Imran Shukr
adnan.omran1203a@ircoedu.uobaghdad.edu.iq
Prof. Dr. Zahra Khudair Abbas

Abstract:

This research studies the praises in the poetry of Ali bin Al-Muqtarib Al-Ayouni, whose poems resonate, and that the majority of these praises are directed by the poet to the rulers of Bahrain to achieve political goals on the one hand, or to protect himself and his own interests on the other hand during his movements between the countries he moved to in his exile Without any means from him for books or fame, and praises of non-relatives were frequent to my transgressors, and it is considered one of the lengthy praises that he boasts of his performing ability to say, and this is what made it within the social praise, which was produced by mutual social relations under a clan-class system based on the exchange of benefit.

as for his religious praise, it came in the second place in the percentage of the verses that came dispersed and distributed among the verses of the poems.

Keywords: Al-Moqtarab Al-Ayouni, Social Praise, Religious Praise, Adherence to the Messenger and his Progeny